تشظي الذات في رواية قليل من العيب يكفي " لزهرة ديك"

The Fragmentation of the Self in the novel, “El kalil mina El ayb yakfi” Zahra Dik.

د. مشقوق هنية hania.mechgoug@univ-biskra.dz
د. جميلة قرين djamila.grine@univ-biskra.dz
جامعة محمد خيضر - بسكرة (الجزائر)

تاريخ الإرسال: 2021/10/02	تاريخ القبول: 2021/12/06	تاريخ النشر: 2021/12/30

Abstract

The aim of this study, entitled The Fragmentation of the Self in the novel, “El kalil mina El ayb yakfi” to identify the underlying relationship between the Fragmentation and the Self as it struggles with the crude reality in which it lives. This is in light of the narrator's search for the full meaning of a normal life free from feelings of hatred, helplessness and turmoil. In an effort to look at the features of the fragmented self and the nature of the solutions it chose as a way to express its disorder

Key words: Fragmentation; Self; narrator; turmoil; disorder;

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة المعنونة بـ" تشظي الذات في رواية " قليل من العيب يكفي" إلى الوقوف على العلاقة الكامنة بين التشظي والذات التي تصارع الواقع الفج الذي تعيش فيه، وذلك في ظل بحث الراوي عن المعنى الكامل للحياة الطبيعية الخالية من مشاعر المقت والعجز والاضطراب، سعيا منا إلى النظر في ملامح الذات المتشظية، وطبيعة الحلول التي اختارتها سبيلا للتعبير عن اضطرابها.

الكلمات المفتاحية: الرواية ؛ تشظي؛ الذات؛ الشخصيات ؛ العجز .

مقدمة:

إن علاقة الذات المتشظية بالواقع الذي تعيش فيه، تحتاج إلى وسائل بديلة تتخذها سبيلا لقهر انشطارها، ففي ظل جدلية الذات والموضوع ينشطر وعي السارد وتهيمن عليه الرؤية الداخلية فتنكسر خطية الزمن حين يعتمد على الذاكرة ليتمظهر وعي الذات في شكل أحلام وكوابيس ورغبة في الانتحار، وقلق مستمر من مشاعر الوحدة والعزلة والمستقبل المجهول، والعجز عن الوصول إلى حالة انسجام وتصالح مع الموضوع.

فما هو مفهوم تشظي الذات؟ وما هي مظاهر الذات المتشظية في رواية قليل من العيب يكفي؟ وهل كانت كفيلة لسد حاجاتها النفسية؟

1- مفهوم تشظي الذات:

وردت لفظة تشظي في معجم "لسان العرب لابن منظور"، تحت جذر "مادة ش.ظ.ى" وتشير إلى: "الشظي" من الناس : الموالي والتباع، وشظي القوم: خلاف صميمهم، وهم الأتباع والدخلاء عليهم بالخلف، و(تشظي الشيء): تفرق وتشقق وتطاير شظايا" [1]

أما لفظة الذات فقد وردت تحت جذر مادة (ذ.ا.ت)، نحو والذات النفس والشخص، ويقال في الأدب: نقد فلان ذاتي يرجع إلى آراء الشخص وانفعالاته، وهو خلاف الموضوعي، ويقال جاء فلان بذاته: عينه ونفسه" [2]

أما عن علاقة المصطلحين روائيا فسنعرض مجموعة من الآراء تكشف العلاقة المتينة بين التشظي والذات، فالذات وهي تواجه العالم والمجتمع والقوانين تجد نفسها غير قادرة على تقبل العديد من الأمور مما يجعلها في حيرة واضطراب وشك، ولهذا فهي إما أن تقبل الوضع وتتعايش معه سلميا، وإما أن تدخل في فوضى الحواس فتجد نفسها متشظية تحاول إدراك كينونتها وتحديد مفهوم لها.

إن الواقع الذي نعيش فيه قائم على الضياع والفقد والتلاشي، وكثرة الأزمات المصيرية للإنسان المعاصر، واهتزاز القيم، وتشتت الذات الجماعية، وغياب المنطق مما انعكس على العوالم الروائية التي غادرت إلى حد بعيد الخطية التي كانت تنتهجها وعليه، (اهتز الشكل الواقعي الكلاسيكي المعتمد على سرد خطي، والتزام منظور أحادي، وطموح في القبض على الواقع في تجلياته التفصيلية، ومنطقه المرئي، لكن أحداثا كثيرة زحزحت هذا المفهوم للواقع "[3] لتخرج الرواية الجديدة رافضة كل الأشكال القديمة للرواية الكلاسيكية، لتأسس لوعي جمالي جديد، تشظى فيه السرد واضمحلت فيه أدوار الشخصيات وتفتت فيه الأزمنة والأمكنة، وتشظت الحبكة القائمة على مبدأ التسلسل والترابط والمنطق.

ينطلق الروائي من تشظي البنية الاجتماعية والفكرية للواقع الذي يستقي منه مادته الحكائية، فكانت " محاولة التمرد على النسق التقليدي الذي كان يقوم على بناء حكاية لا تنفصل عن السرد الذي يتولى تشكلها، ولا يترك مسافة بين الأحداث والوسيلة السردية، ويتوارى الرواة، ويزداد الوهم بواقعية الرواية، فيجد المتلقي نفسه جزءا منها، فيما نزعت الاتجاهات الجديدة إلى الإفادة من التقنيات الحديثة في السرد بأشكالها كافة، فالعوالم المتخيلة لهذه السرود مهمشة ومفككة وتسودها الفوضى، فهي عوالم أعيد تمثيلها طبقا لرؤى رفضية ومواقف احتجاجية، فظهرت ممزقة وغير محكومة بنظام منطقي "[4] وكان أن أفرز هذا الوعي في الكتابة الروائية نمطا جديدا، أطلق عليه النقاد مصطلح تشظي ويقوم هذا على استعمال الرسائل والمذكرات واليوميات والصور، والأحلام والهذيان والهلوسة والتجربة والتذكر وجميعها طرق استحدثها الروائيون لتوليد المعنى في رواياتهم بطريقة تكسر الرتابة والملل، وتقرب المعنى لذهن المتلقي .

أصبحت الكتابة السردية تعكس فوضى الواقع و تفككه، التي تشكل النواة الدلالية التي ينشطر ويتشظى الشكل من خلالها، إذ " أصبح السارد يحكي وهو يضع مسافة بينه وبين محكياته، ليكشف ما هو قابع تحت السطح، ويتيح للذات المشروخة المتشظية أن تشكك في تماسك الواقع وتقدمه بثقوبه وثغراته، بضوضائه وصمته)[5] .

2-مظاهر الذات المتشظية في الرواية:

1.2 **الحلم:**

يعد الحلم من التقنيات الداخلة في جوهر العمل الأدبي الإبداعي و" من بين آلياتها المعروفة التذكر، التجربة، الحلم، وتتناسب مستويات فاعليتها فيه استنادا إلى عاملين أساسيين؛الأول خاصية النوع الإبداعي، والثاني طبيعة الشخصية الإبداعية، ومن خلالهما يتخذ حجم حضور الحلم وسبل تأثيره، ونماذج تنصيصه، ويتمخض تأثير الحلم في العمل الإبداعي على قدر معين من الإبهام الذي هو جزء أساسي من حياة النفس البشرية، لا مفر لنا من مواجهته إن نحن أردنا فنا يصف النفس، ويلمس حياتها لمسا حقيقيا"[(6)].

فالأحلام من التقنيات التي يعمد إليها المؤلف لتقديم شخصياته، وتشمل أحلام المنام واليقظة، كما أنها تساعد على خَلق فضاء عام يجري في مساحاته؛ الاستبطان النفسي للشخصيات باعتباره انزياحا عن عالم الوعي نحو اللاوعي، إنها مجموعة " الأفكار والصور التي توجد في الذهن ولا تخضع للعقل، وليس الحلم بالضرورة هو الصورة أو الفكرة التي تبدو لنا في النوم ،إنه مجرد فكرة أو صورة تنمو من سيطرة الذهن العقلي أو المنطقي أو السببي، وتأسيسا على ذلك قد يشتمل مصطلح الحلم على الفكرة الخيالية، والتصور، وحلم اليقظة، والرؤى والهلوسة الناتجة عن تأثير المخدرات، وأية تجربة انبثقت من مملكة ما وراء الشعور"[(7)].

جدير بالذكر، أن الكاتبة زهرة ديك اعتمدت آلية الحلم استجابة لأحوال شخصياتها العاجزة عن التكيف، والناقمة على وضعها المزري ما جعلها في كثير الأحيان تلجأ إلى القيام بردود أفعال مناهضة لذلك العجز.

فالحلم انعزال وانفصال الحالم عن وضعه المأساوي مكانيا وزمانيا، ولهذا عده البعض باعثا من بواعث الإحساس بالاغتراب الزمني، لأنه "شكل من أشكال التمرد على الواقع"[(8)]؛

فالحلم لا حدود له وفي ذلك تكمن أهميته باعتباره وسيلة مساعدة للوقوف على حالة تصدع الشخصيات واغترابها، بسبب التأزم والوحدة واللامبالاة والقهر الذي تعيشه في ظل الأنظمة الجائرة السائدة والمسيطرة.

وجدت الشخصيات في الحلم متنفسا لإفراغ هواجسها ومكبوتاتها، ونقمتها على الأوضاع المتفسخة والمتأزمة المتولدة من إفرازات الواقع الفج، فلكي تتحقق رغباتها وتشعر بوجودها ولو مؤقتا لجأت لاستشراف العالم الماورائي والغيبي لتعبر عن اغترابها، فبالحلم تستطيع أن تحقق رغباتها التي لم يسمح بها العقل الواعي والبيئة الاجتماعية، فتطبق أحكام الإعدام على من تشاء وتحقق ما طاب لها من رغبات، وهي بذلك تقهر اغترابها، إنه الزمن الخاص" الذي يقع خارج حدود الزمن الحقيقي لا يخضع لأي تسلسل زمني، وزمنه يتشظى نتيجة لتشظي الشخصية التي تعيش حالة تبعثر وهلوسة نفسية وتصدع ذاتي "[9].

يتمظهر تشظي الزمن في الهروب إلى الحلم، فعندما لا تجد النفس المغتربة ما يؤنس راحتها، تلوذ به لتعوض نفسها عما وجدت في حياتها من نقص "بمعنى إذا أخفق الفرد في تحويل تخيلات الرغبة إلى الواقع، فإنه يبتعد عن الواقع ويلوذ بحمى عالم حلمه الذي يوفر له أكبر قدر من السعادة"[10]، وكأنه لا سبيل إلى الحياة السعيدة وانبعاث الخصب والنماء في الروح الإنسانية إلّا بالأحلام التي تعد الحد الفاصل بين الواقع واللاواقع.

اللافت للانتباه في رواية "قليل من العيب يكفي" أن الحلم ملاذ ومهرب للشخصيات جاء على شكلين؛ فمرة بلفظة (أحلم وحلمت) نوما كان أم يقظة، ومرة بما دل على الحلم كالأمنيات والرغبات في انتظار زمن آخر أكثر رهافة وتوهجا، والدخول إلى فضاء الحلم الذي من شأنه "ابتكار الحلول السهلة لأعقَد المشكلات، إنه ضروري لمواجهة الواقع وتحطيم العقبات" [11]،

وفي سياق آخر، يظهر الحلم كملجأ "**لدابو**" الذي كره وسئم قسوة زوجته ووئدها لرجولته، لهذا نلفيه يقتات من الحلم كبديل مناهض" لعالم واقع قد يحمل الطمأنينة وقد يحمل نقيضها، ولكنه يبقى أكثر عمقا من الواقع، لأنه اختياري مخلوق وفق رؤية المغترب وعمقه

الإنساني الروحي" [12]،حيث اتخذته الكاتبة "زهرة ديك" تقنية نفسية وجمالية سيطرت على الرواية من بدايتها إلى نهايتها باعتبارها "نِتاج لتجربة التمزق الإنساني" [13].

فالأحلام ناجمة عن "شعور الفرد بنقص ما أو دونية هذا النقص أو العجز يكون شغله الشاغل، فيأتي على شكل أحلام كتتمة لما يفقده ذلك الفرد، أو ما يحلم أن يكون عليه، كالشهرة مثلا أو التفوق، فتكون الأحلام ههنا عبارة عن وظيفة تعويضية لنقص معين"[14].

جاء الحلم في الرواية ليعبّر عن أزمة المغلوبين على أمرهم الذين وصلوا إلى درجة عالية من اليأس والإحباط، والالتحاف بالاغتراب الذي بات سمتهم المميزة، فهو كذلك حال "سكينة" التي اتخذت الأحلام وسيلة للتخفيف من حدة تأزمها النفسي، فدخولها سن العنوسة جعلها تتزوج بمن تشاء في أحلامها "وحدها الأحلام كانت تدللها في المنام فقط ترى نفسها زوجة أحد الشخصيات المرموقة أو الرؤساء العرب طبعا...هي لا تفكر أبدا في الارتباط برئيس أجنبي كافر، لن تنسى أبدا تلك الأحلام الوردية التي عاشتها على فراش النوم مع الوزير فلان، ومع السفير فلان، ومع الإطار السامي فلان، كثُر من تزوجتهم في المنام واستمتعت بذاك العز وتنعمت بتلك الفخامة والرخاء، وعاشت ليالي لم تعشها امرأة غيرها، ولكنها الآن وفي هذه اللحظة بالذات تخشى ألا ينوبها شيء لا من أحلامها الليلية ولا من أحلامها النهارية" [15].

يأخذ الحلم بعده الجمالي والافتراضي في حياة سكينة من جسد الآخر "فتعليل النفس بالإشباع الخيالي للرغبات يجلب للفرد شعورا بالرضا لا يعكره إدراكه لعدم واقعيته"[16]، لكنه عندما يصطدم بالواقع يتبخر فتعود أحلامها أدراج الصفر لاقتناعها بأنها ستبقى عزباء مهما أتاها الحلم من أزواج وشهوات .

لا شيء يستطيع استيعاب الأحزان والهموم والتخفيف من حدتها في حياتنا إلّا الأحلام التي تُتيح للشخصية التنفيس عن النفس المكلومة، والإكثار منها يعكس حرمانها من كل شيء: الحب، الضحك، الفرح، التقدير والاحترام، وهو ما حصل مع "دابو" الذي يعاني اغترابا زوجيا حادا بسبب معاملة زوجته واحتقارها له؛ الأمر الذي جعله يحلم كثيرا بقصة حب تغسل أدران

النفس، وتُحيي ما بها من موت وجفاء "يحرص دابو على ستر عشقه ودسه كجوهرة ثمينة في أقصى ركن في قلبه، يداري هيامه بها خشية أن تضيع منه تلك الشهوة التي لا تزوره إلا في حضرتها، شهوة ممنوعة من الظهور مع زوجته مريم" [(17)].

فشخصيات الرواية كلها حزينة بائسة ومضطربة نفسيا، وهو ما جعل الحلم مهربا ومسلكًا وملاذا تركن إليه كلما أحست بقنوطها من الحياة التي لم تُخلّف لها سوى الانتظار، وهو حال "بهتة" الذي كلما غرق في هموم وتفاصيل حياته الزوجية المفرغة من كل قيمة حميمة، ضَغَط على زر الحلم لكي ينعم ببعض الراحة بعيدا عن نظرات زوجته المحمومة " كم تورقه تلك اللحظات التي ينام فيها بلا نوم، ويبقى لفترة يتأرجح بين حلم وحلم، ويقفز من حلم إلى حلم" [(18)]، انفلاتا من قبضة الهواجس الجنسية التي باتت تؤرقه، فمع الإلحاح الجنسي لزوجته تتضاعف المطالبة بالأحلام ويزداد التشبث بها هربا من تلك النظرات الثاقبة، فكأن الرغبة الجنسية لم تعد تعنيه كرجل ليصبح الحلم أفضل منها بكثير باعتباره نوعا من الإقصاء الذاتي والانتقام.

باتت الأحلام إطارا نفسيا خانقا لـ "بهتة" لدرجة أنه أصبح موزَعًا بينها وبين اليقظة، وبين الواقع والخيال، فقد تحولت إلى لازمة فأينما كان وكلما وقعت عينيه على شيء هجم عليه الحلم وحلّق به طائرا، فأثناء وجوده عند الحلاق منتظر دوره أخذ يحلم بأي شيء يلقيه حتفه هل بحبل مشنوق؟ أم بفأس؟ أم بآلة حادة؟، أم برصاصة؟ كما مات الرئيس المغدور "محمد بوضياف"، "رصاصة واحدة قتلته، واصلت القتل...إنها لازالت حية تُرزق...تحيا مع كل موت تصنعه...مع كل عملية إرهابية، تتغذى على كل جسد تفجره...قويت...قويت...وتفرعت وتطورت ولبست أجسادا، وأخذت تعربد...تصعد الحافلات مثلنا وتجوب الأسواق مثلنا...تناسلت وتكاثرت، وصارت ديمغرافيا واقعنا...نحن الآن نعيش مستأنسين بخطرها الذي قرّر الإقامة الأبدية بيننا" [(19)]، فالشعور الذي ينقله هذا الحلم هو الخوف من الموت والقدر الذي لا مفر منه، ولأن "بهتة" يعاني تجارب فاشلة ومرة في حياته فقد اجتاحته الأحلام، وسطت عليه الهواجس، والمنغصات التي حولت الموت إلى شبح يلاحقه أينما كان ليمنع عنه لحظات المتعة،

فاختلط لديه التفكير بطريقة موته مع طرق موت الرؤساء العرب المغدورين "محمد بوضياف" و"صدام حسين"، واستغرب كيف يمكن أن يموت الرئيسان بتلك الطريقة البشعة؛ فماذا عنه إذا وهو موظف بسيط أقل ما يقال عنه أنه مجنون ومضطرب نفسيا.

4- الكوابيـــس:

لما كانت ظاهرة القمع من بين الظواهر التي تعاني منها المجتمعات العربية، وذلك على كافة الأصعدة وفي جميع المؤسسات الاجتماعية الأسرة، والمدرسة، والمجتمع، فهناك قمع أبوي ومجتمعي وسلطوي وزوجي في الرواية قيد الدراسة، وهو حال "بهتة" الذي يعاني قمعا وظيفيا وأسريا ومجتمعيا، ولهذا اختلطت أحلامه بالمعاناة والحرمان المادي والعاطفي، فتحولت إلى مجموعة كوابيس مرعبة لوثت أحلامه وجعلته يخلط بين الواقع والخيال، فالكوابيس من المظاهر الحادة التي تصل إليها الشخصية في المنام" إذ يتحول حلمها إلى عالم مخيف ومرعب مليئ بالوحشية والصور المخيفة التي تحيط بها ولا تصل الشخصية إلى هذه الحالة إلا بعد مرورها في الواقع بأزمات شديدة الحدة وواقع شديد المرارة، فتنعكس هذه الشدة في المنام وتظهر بصورة كوابيس، وقد يأتي الكابوس أيضا بفعل خطايا ارتكبتها الشخصية في الواقع فتنعكس آثارها في العقل الباطن مما يولد في منامها كوابيس مرعبة" [(20)]؛ فمن أمثلة ذلك في الرواية:

"تراءى لي وشمٌ غامق غريب على زند أحد الجنود وهو يحتضن رشاشته المقلوبة، وتملكني رعب عندما لاحظت أن فوهتها موجهة إلى رأسي، [...] أشعر أني كائن منامي... [...] أعرف قيمة النوم وأقر بقدرة الأحلام، فلا يقظة بلا نوم، والحلم هو واقع معلب وهو المادة الحافظة لصلاحية الواقع."[(21)]، هكذا توالت الكوابيس على "بهتة" جاعلة إياه فاقدا لمنطق النوم، فكأنه يريد أن يعبر من خلالها عن الأورام التي تكتلت في المجتمعات العربية المعاصرة اليوم، بسبب فساد الحكام والرؤساء الذين باعوا مبادئهم لأجل مصالحهم الخاصة .

يبدو أن "بهتة" لم يتخلص من عقدة الإرهاب التي مرت بها الجزائر والتي مازالت محفورة بداخله؛ لأنها تذكّره بالكارثة التي شهدها في شارع عميروش، بل أبعد من ذلك فهذا الكابوس مكننا من الوقوف على الجوانب النفسية الممزقة والمضطربة "لبهتة" الخائف من الموت، كما مكننا من تقريب اللاوعي المترسب بداخله؛ لأنه بين الحين والآخر يسأل نفسه بأي وسيلة سيموت "فالموت أثقل الهموم النهائية، الموت حقيقة مرعبة في حياة كل فرد، تتركه في صراع حقيقي ودائم بين وعيه بالموت المحتوم ورغبته الشبقية في استمرار الحياة "[22]، حينها بلغ التشاؤم والخوف ذروته عند "بهتة" لأن الكوابيس أطبقت عليه، وجعلته يشعر بقرب نهايته .

إننا نتحسس الحزن والأسى الذي خلّفه موت الرئيس "صدام حسين" في نفسه، فانقلب إلى رعب اجتاح منامه ليصبح كابوسا انتفض منه خائفا يقول: "انقلبت رأس صدام حسين رأسه وبكاها كما لم يبك رأسا من قبل، هذا أنا رأس مقطوعة عاش بأم عنقها بأم أيامها فعل الموت...وأصبحا اسما...رأسا نسيت جسدها، وتفرغت لفقد معناها، لتحقيق ما لم يعد لازما...رأس "بهتة" لم تكن تلك ألف مشاهدتها في المرآة [...]، وقبل أن يمد يده ماسحا شعره مؤكدا لنفسه ما يزعمه هاله مجيء موجة عملاقة شعر أنها عازمة على أخذه زاعمة أنها ستوصله إلى حل كل أسرار أحلامه وألغاز يقظته...ولم يشعر بنفسه إلا وهو راكع على سريره، الذي انتفض فجأة كما لم ينتفض قط"[23].

نعم، تأتي الكوابيس لتعزز مشاعر الخوف من الموت بوصفها جزءا أساسيا من صناعة الرعب في النفوس، فتأثر "بهتة" بما يجري لأمته العربية من تصدعات وتحولات من جهة، وموت الرئيس بتلك البشاعة من جهة أخرى، كل هذا جعله شخصية غير مستقرة، فالواقع الجمعي مهدد بالزوال والانقراض في ظل حالة الاستلاب الحضاري العربي والهزائم والإخفاقات في مواجهة العدو الغربي الذي حول المشاعر العربية إلى سوداوية قاتمة لا تملك إزائها إلا الاستسلام لليأس والقلق، والخوف من المصير نفسه والميتة نفسها.

إذا كان الحلم أخو النسيان والنسيان بلسم الجراح، فإن الكوابيس عكس ذلك تماما نظرا للرعب الذي تخلفه في النفوس، وهو ما أقلق "بهتة" وأرق حياته التي ما عاد يعرف فيها جنسه

امرأة أم رجل، فالكوابيس أقلقت راحته واغتالت كيانه، واستحال عليه التفريق بين اللّيل والنّهار "استفاق بهتة من نومه بحال غريبة...عجز عن تمييزه هل الوقت ليل أم نهار... حاول الرجوع إلى ذاكرته فإذا هي هي بلا ذكرة...ارتبك فكره وأخذت الأشياء والكلمات تتخبط في رأسه وبين شفته...عجز حتى عن تمييز جنسه...هرب منه كما يهرب عندما تحدثه "بدور" عن زوجها...ما عاد يعرف إن هو رجل أم امرأة"[24].

لم توظف الكاتبة هذه التقنية النفسية الحادة لتعبّر عن اغتراب البطل الاجتماعي والزمني؛ بل تعدت ذلك لتعبّر عن اغترابه الزوجي، فلفرط كرهه إلحاح زوجته ورغباتها التي لا تنطفيء، وتلهيه عنها بقرمشة الكاوكاو والنوم باكرا، انعكس ذلك على منامه فقد اجتاحته كوابيس كثيرة تاركة ندوبها على حياته النفسية "الآن فقط عرف سبب فتور قلبه نحوها...لم يكن يخبرها بشيء بل كانت كالمستمتعة، وهي تراه يُصاب في كل مرة في عضوه وتأخذه حكة وهرش لا قِبل له بهما، ولا تنفع معهما لا مراهم ولا سبيرتو، ولا تهدأ هذه الأزمة حتى يأخذ العضو في التفاقم إلى أن يفوت رأسه، ولا يجد مفرا من قطع جزء منه في كل مرة، كما يقطع الجزار قطعة الكاشير، ويأخذ جسده عندها في التقزم فتفزع، كانت العملية تتكرر في كل حلم،حيث أصبحت بمثابة اللازمة الحلمية، وكم كانت دهشته كبيرة من سادية زوجته، ظل مدة غير قصيرة بنوم وبلا نوم رهبة من أن يعاوده ذلك الكابوس اللعين" [25].

أشار "غاستون بشلار" في كتابه "شاعرية أحلام اليقظة" إلى أن مواجهة العالم الحقيقي تُمكننا من اكتشاف كينونة الهم في داخلنا، لهذا فالحلم أداة ووسيلة للهرب من هذه المواجهة؛ فالأنا الحالمة عندما تحلم تتحول إلى اللا أنا التي تُسعد أنا الحالم[26]، لكن هذا ما لم يحصل مع "بهتة" فالأنا لم تسعده وأحلامه تحولت إلى كوابيس وهواجس، بسبب سادية زوجته التي أفسدت ليله ونومه، وجعلته يختار البقاء مستيقظا لكي يصحو مكتمل الجسد، فعجز "بهتة" أمام رغبات زوجته تم تحويله إلى لاوعيه، ومن ثم إلى عالم الكوابيس التي بات يرى فيها بترا لأعضائه.

إنَّ أقسى درجات الاغتراب التي تعرض لها "بهتة"؛ هي شعوره بالتهميش وعدم تقدير حضوره الفاعل في الجريدة التي يعمل فيها، فرئيس التحرير "الكوبرا" ومن والاه، كثيرا ما أحبطوا اجتهاداته وقللوا من إلهامه وإبداعه في الكتابة بالتحقير والازدراء؛ الأمر الذي حوّله إلى شخصية منطوية على نفسها، لا يعرف الفرح والاستقرار النفسي طريقا إلى قلبه، سوى الكوابيس والهواجس التي أعدمت النوم، وباتت قانونا ثابتا في حياته الملونة بالعذاب والخوف والاضطراب والفشل.

فبين الحين والآخر يخبرنا "بهتة" عن الكوابيس التي رأها في منامه، والتي لونت حياته الليلية بألوان سوداء قاتمة "أخذت مناطق بعيدة في رأسه تزيح الستار عما رآه في منامه البارحة...عرّاف على هيئة مدير الجريدة له مكتب كالعيادة الطبية في قلب الصحراء يستقبل فيها النساء الراغبات في الإنجاب ويحبلن بمجرد أن يكشف للواحدة منهن عضوه تنتابها أعراض الحمل، وينتفخ بطنها مباشرة لتلد بعد لحظات قليلة، كنّ واقفات في طابور طويل أمام مكتب العراف الذي حوّله إلى عيادة عاريات يشبهن عرائس البحر المتلاصقة، وفي يد كل منهن رضيع عارٍ بجمجمة تفوق حجم جسده، والجسد زائدة ملتصقة تتدلى منها [...] يثقب الطبيب رأس الرضيع بمقص حاد، فيتسرب هواء بلا رائحة، وتُصعق الأم لمشهد رضيعها الذي تحوّل فجأة إلى شريط معوي رخو في حضنها، استفاق "بهتة" نصف مذعور واستعاذ من شر ذاك المنام ثلاث مرات، وتفل على يساره ثلاث مرات كما تقتضي عادة المسلم عندما يرى كابوسا أو مناما مزعجا" [(27)] وهكذا، فإذا كانت الأحلام مدخلا لاستعادة الحياة وكسر اللحظات المؤرقة، ووسيلة لتحطيم العقبات وتجاوز الواقع المر لتقوم الذات بما يحلو لها، فإن الكوابيس عصارة نفس فاشلة؛ على درجة عالية من الألم النفسي، والخوف من الواقع المحيط بها.

تحولت الكوابيس إلى حمى وصداع أصاب "بهتة" فجعله يخلط خلطا كبيرا بين الوهم والواقع، فلا شيئ يشفي ألمه غير التأكد من صحة ما رآه في منامه "طرق بهتة باب الجريدة...أطلَّ برأسه...تأكد أنه لا يزال مديرا ولم يتحول إلى شيء آخر" [(28)]؛ يبدو أن الأحلام تخلت عن بهتة، فاجتاحته الكوابيس وتكالبت عليه من كل جانب ليتلقفه الحزن، وتحتضنه الكآبة وتفترسه

الهموم؛ فالكوابيس جرثومة قاتلة، أتت على كل جميل في حياته"رجولتي اختارت عالم الكوابيس لتعيش فيه...قدَرها العتمة والسواد لا الحدائق والشمس، ما عادت تطيق الحياة العادية، كثيرا ما انتحرت على مرأى أحلامي فتراني أمام شهوة أحاول سترها لكن تواصَل التفاقم متى تفوق قامتي [...] نعم أنا رجل ولكن حزين" [(29)].

جدير بالذكر أن الحلم من مخففات وقع الاغتراب على النفس ومن بواعث الأمل في الحياة، لما لهذه التقنية من قدرة على خرق وتجاوز الواقع؛ والهرب الذهني إلى مساحة زمنية حلمية آمنة تقي الشخصية الحالمة لفح الاغتراب، وتعتقها من كل أسر وكبل سببه لها الواقع المرير؛ "فكلما اتقد الحلم واتسع كلما اتسعت الذات الحالمة وصار العالم مقيدا بالحلم، فالحلم يجعل الذات مركزا والعالم تابعا لها وعالقا بها فالذات تعلو على العالم بحلمها وتتخلص من منغصاته" [(30)]، لكن الأمر ينقلب إلى نقيضه إذا ما اشتدت عليها الأزمات؛ مما يجعل فضاء الحلم فضاءً مُضنيا ومرعبًا، بتحوله إلى مجموعة كوابيس مفضية إلى الانفصام والتشظي.

3-1 القلق:

يمكننا الوقوف عند بعض التعريفات للقلق والتي منها:

هو حالة "من عدم الارتياح والتوتر الشديد الناتج عن خبرة انفعالية غير سارة يعاني منها الفرد عندما يشعر بخوف أو تهديد دون أن يعرف السبب الواضح لها"[(31)]، ويعد "سيجموند فرويد" من العلماء الذين نظروا للقلق معتبرين إياه أساس العصاب وفسروه على أساس تعرض الإنسان لخطر إشباع غريزة، فيكبتها لما يسببه إشباعها من خطر خارجي يتمثل في العقاب، ومن هنا يحس الشخص بالعجز النفسي الناتج عن الخطر الغريزي الملح" [(32)]،فالقلق حالة تنتاب الإنسان نتيجة صراع الذات وباطنها ورغباتها مع الخارج المتمثل في القيم الأخلاقية والدينية، وهو ما يؤكده قول "روجرز" بأن القلق"خبرة يعيشها الفرد حينما يهدد شيء ما مفهومه لذاته" [(33)].

يتجلى القلق في رواية "قليل من العيب يكفي" عندما تحول" البيت من كونه سكنا يحوي المنتمين إليه إلى منفى، أو قلعة نائية بفعل إسقاط الحالة النفسية " [34] على شخصية الزوج الذي أخذت هزائمه تتفاقم كل مرة وتكبر فجيعته وقلقه الدائم إيزاء العلاقة السلبية التي تربطه بزوجته، أين يظهر الاغتراب المكاني القائم على اضطراب نفسي بين الزوجين؛ بالإضافة إلى التمرد وكسر المتوارث من العادات والتقاليد وانمحاء الفحولة.

وفي سياق آخر يبدو القلق على "دابو" حينما يذهب إلى مقر عمله بالجريدة، وهو محمل بالندوب وأثار ضرب زوجته له"مرات عديدة يأتي إلى الجريدة متورم العينين من شدة البكاء ليلا أو بفعل لكمات أهدتها له زوجته، لسبب أو لآخر، أما إذا دخل الجريدة بمنديل صغير حول رقبته، فهذا يعني أنه تعرض البارحة لهجوم شرس شنته عليه زوجته مستعملة أظافرها وأسنانها أحيانا تنتشر الخدوشات على وجهه ويديه، وإذا ما سأله أحدهم ما بك؟ يجيب إجابته الجاهزة التي أصبح الجميع يعرفها...ابنتي ياسمين، عندما كنت ألاعبها فعلت بي ذلك الحلوفة، ثم يطلق ضحكته المقهورة ويسارع لتغيير الموضوع" [35] ولأنه ضعيف فهو لا يمتلك حيلة ولا قوة لمواجهة جبروت زوجته والعنف الذي يلحق به في بيته، ولا يجد وسيلة لتبرئة نفسه أمام التهم التي تُوجَه إليه من قِبل زملائه في العمل، بسبب (الندوب، الخدوش والتورم) الذي حفرتها زوجته حول رقبته ووجهه؛ إلا الكذب كإجابة جاهزة والضحكة المقهورة لمدارات قلقه.

خاتمة:

تضافرت التقنيات السالفة الذكر لتعبر عن انسحاب الشخصيات إلى عوالم مختلفة لتجسيد رفضها المطلق للزمن الحاضر الملون بمشاعر الإحباط والتهميش، والعنف والماديات،ما جعلها تضيق ذرعا بالحياة الراهنة لتختار الزمن الماضي والمستقبل،والأحلام والهذيان، والجنون، والحديث النفسي لحظات انفصالية هروبية تنشد فيها ضالتها وتقهر اغترابها، وخوفها من الزمن الحاضر الذي بات عدوها اللدود.

الهوامش:

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ش.ظ.ى)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 3، 1994، ج14، ص434.

(2) المصدر نفسه، ص434.

(3) محمد برادة، الرواية العربية ورهانات التجديد، دار الصدى، الإمارات العربية المتحدة ، ط1، 2011، ص51.

(4) عبد الله إبراهيم، السردية العربية الحديثة الأبنية السردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 2013، ص196.

(5) محمد برادة، الرواية العربية ورهانات التجديد،ص51.

(6) محمد صابر عبيد، مرايا التخيل الشعري، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، دط، 2006، ص 159.

(7) مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 217.

(8) محمد صابر عبيد، مرايا التخيل الشعري، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، عمان، إربد، الأردن، 2006. ص160.

(9) مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية،ص122.

(10) فيصل عباس، الاغتراب، الإنسان المعاصر وشقاء الوعي، دار المنهل اللبناني، بيروت، ط1، 2008،ص 302.

(11) ينظر: إدريس الكريوي، بلاغة السرد، في الرواية العربية، دار الأمان، الرياض،ط1، 2014،ص98

(12) سليمان حسين، مضمرات النص والخطاب دراسة في عالم جبرا إبراهيم جبرا الروائي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، بيروت، دط،1999،ص241.

(13) نضال صالح: النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، دار الألمعية للنشر والتوزيع،ردمك،ط، 2010.ص 124.

(14) رشا علي عبد العزيز موسى، سيكولوجية الأحلام بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2006، ص 16.

(15) زهرة ديك، قليل من العيب يكفي،دار بغدادي للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص 151، 152.

(16) فيصل عباس، الاغتراب، ص 306.

(17) زهرة ديك، قليل من العيب يكفي، ص 191.

(18) المصدر نفسه، ص 110.

(19) شرحبيل إبراهيم، بنية الشخصية في أعمال مؤنس الرزار، دراسة في ضوء المناهج الحديثة، رسالة دكتوراه، جامعة مؤته،الأردن، 2007، ص 166.

(20) زهرة ديك، قليل من العيب يكفي، ص 120.

(21) المصدر نفسه، ص 176، 177.

(22) ماجد موريس إبراهيم، سيكولوجيا القهر والإبداع، دار الفارابي، بيروت، لبنان،دط،1998 ،ص84.

(23) زهرة ديك، قليل من العيب يكفي ، ص 147، 148.

(24) المصدر نفسه، ص 121.

(25) المصدر نفسه، ص 111.

(26) ينظر:غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1991، ص 17، 18.

(27) المصدر نفسه، ص 111، 112.

(28) المصدر نفسه، ص 122.

(29) المصدر نفسه، ص 229.

(30) ينظر:غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، ص 18.

(31) مصطفى نور الدين القمش، خليل عبد الرحمان، الاضطرابات السلوكية والانفعالية،دار المسيرة، عمان ،ط2، 2009، ص 254.

(32) ينظر المرجع نفسه، ص 255.

(33) سوسن شاكر مجيد، اضطرابات الشخصية أنماطها قياسها، دار الصفاء، عمان ،ط1، 2008، ص 179.

(34)25 ينظر:غاستون باشلار، شاعرية أحلام اليقظة، ص 20.

(35) المصدر نفسه، ص 229.